المجلة الدولية للإتصال الإجتماعي
جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم
ISSN: 2437 – 1181
EISSN: 2710-8139

المجلد 3 / العـدد: 4 (2016)، ص 38– 50

قراءة نظرية توثيقية في أشكال التعابير الثقافية
الكتابة على الجدران أنموذجا

Theory documentary reading in forms of cultural expressions
Graffiti as a model

غواظني مليكة

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم(الجزائر) [1]malikaghouadni87@gmail.com

تاريخ الاستلام:2 2016/10/0 تاريخ القبول: 2016/11/22 تاريخ النشر:30 /2016/12

الملخص : تعالج هذه الورقة البحثية موضوع أشكال التعابير الثقافية التي اعتمد عليها الإنسان قديما في ممارساته اليومية من اجل التواصل والتخاطب مع بني جنسه من خلال كتابات أو رموز أو رسومات وضعها بنفسه، حيث قاربنا هذا الموضوع من أجل تفحص ظاهرة الغرافيتيا من حيث أنها ممارسة ثقافية وفعلا اجتماعيا حديث، له خصوصياته ودلالاته الاجتماعية والرمزية.

تتصف مقاربتنا هذه بكونها نظرية توثيقية، حاولنا من خلالها تقديم السياق السوسيو تاريخي الذي أنتج الكتابة على الجدران من جانب آخر ومحاولة تقديم مقاربات علمية سوسيولوجية خاصة.

كلمات مفتاحية: الغرافيتيا، التعابير الثقافية، الممارسات الثقافية، الثقافة الهامشية، عادات وتقاليد المجتمع.

Abstract:

This research paper deals whith the forms of cultural expressions on which man has relied in his daily practice in order to communicate through his own writings symbols or drawings. We adopted an approach that examines the phenomenon of graphiti as a cultural and social act, the peculiarities of social and symbolic connotations.

This approach is characterized as documentary theory, in which we tried to present the socio-historical context that produced graffiti on the other hand and too attempt to present special sociological approaches.

[1]*المرسل غواظني مليكة اميل المرسل malikaghouadni87@gmail.com

Keywords: Graphitia; cultural expressions; cultural practices; marginal culture; the customs and tradition of societ

1.مقدمة:

إن ما يعرف عن الظواهر الاجتماعية أنها تعبر عن فعل اجتماعي مشترك بين فئة كبيرة من الأفراد، بحيث أضحت هذه الظواهر تساير الكثيرمنالتغيراتالتيتطرأعلىالمجتمع،سواءكانتثقافيةأواجتماعيةأوسياسيةأوغيرها، وأحسن مثال على ذلك ظاهرة الكتابات الجدارية المتأصلة في عمق التاريخ التي تعود جذورها للعصور الأولى من حياة البشرية، ورغم وجود هذه الظاهرة في مراحل مختلفة من التطور الإنساني إلا أنها حاليا تأخذ أبعادا جديدة في الطرح بمحتواها النفسي الاجتماعي وقد أضحت من أهم وسائل التعبير وإبداء الرأي خاصة في ظل ضيق مساحة الرأي في الوطن العربي.

سنحاول من خلال هذه الورقة التعرف على السيرورة التاريخية لظاهرة الغرافيتيا والمفاهيم العامة لها إضافة الى الخصائص المتنوعة التي تتميز بها موضحين أماكن ممارستها وانتشار هذه الظاهرة في الوطن العربي والجزائر، وكذا استعراض مختلف الدراسات السابقة التي تم انجازها حول الموضوع قصد حصر مختلف الزوايا التي عولج من خلالها الموضوع .

أولا_الكتابات الحائطية الماهية ،النشأة:

1_مفهوم الكتابات الجدارية:

تعرف الغرافيتيا على أنها "الكتابة الرسم والنقش على الجدران تستعمل فيها وسائل متنوعة كالفحم مثلا" (بوعلام، 2014، صفحة 197).

وتسمى بالكتابات أو الرسومات الجدارية أو الحائطية بسبب تواجدها وبشكل كبير على الجدران مهما كان نوعها ومكانها (الجدران) وتجمع فيها كلمة كتابات ورسومات للإلمام بمعناها.

وفي اللغة الأجنبية "تسمى ب les graffitis وعرفت بهذا المصطلح فكثيرا ما نجدها في مواقع الانترنت بهذا الاسم **الغرافيتي** نسبة إلى كلمة Graff.

وتعني الكتابة أو الرسم على الجدران وكذلك إلى كلمة le Tag وتعني الحفر أو النقش على الجدار وكلاهما يدخلان في نموذج واحد وهو les graffitis التي تحتويهما. كما أن كلمة les graffitis تعني نقش أثري أي الخربشات على الجدران والأبواب، وهي جمع لمفرد Gravitti.

وكل هذه المصطلحات إنما تدل في مجملها على جميع أصناف الكتابات الجدارية .وتعرف بأنها ظاهرة عامة تشمل المجتمع الإنساني كافة وقد شملت كل المجتمعات دون تميز مجتمع عن الآخر، وقد لمحنا هذا في الجذور التاريخية لها، وكيف كانت بدائية وبسيطة كبدائية تلك العصور وكيف صارت جديدة ومستحدثة بحداثة العصر. ويقول Denise Bilodeau :

إن الكتابات الجدارية لديها لغتها الخاصة، وهي تستلزم استخدام رموز وشفرات تحمل المعاني التي يقصد أصحابها إيصالها، ولاشيء وجد من العدم، وعليه فإن فهم الكتابات الجدارية يستلزم فهم وفك لغز تلك الرموز والشفرات، بحيث أن لها ارتباط بالجماعة التي ينتمون إليها كتابها بعاداتهم وتقاليدهم " ...

ويقصدBilodeau بهذا المفهوم، أن الكتابات الجدارية عبارة عن كلمات وربما رموز إشارات أو شفرات des codes وحتى تجسد في معناها جملة من المضامين المختلفة والتي كتبها أصحابها بغية إيصال رسالة ما أو التعبير عن أشياء معينة، ولفهم الكتابات الجدارية يجدر فهم وفك تلك الرموز وهي عادة ما تعبر عن عادات وتقاليد وأعراف المجتمع الذي ينتمي إليه كاتبوها. ويقول أن :الكتابات الجدارية هي تعبير عن الثقافة الحضرية، وتعتبر تدريجيا أكثر شعبية عند الشباب وعند معظم الطبقات الاجتماعية، بل وعند كل البلدان.

وإذا تمعنا في هذا المفهوم نجد صاحبها نما يربط وبشكل مباشر نشوء الكتابات الجدارية في الوسط الحضري، حيث يعرفها بأنها الثقافة الحضرية .وبالفعل فإننا خلال تتبعنا لتطورها في العصور الحديثة وجدناها أكثر انتشارا في المدن حيث تكثر كثافة السكان وتكثر المطالبة بالحقوق في هضم وتناسي العديد منها، لذلك فإن الكتابات الجدارية هي حوصلة الحياة الحضرية ويمارسها الشباب أكثر من أي شريحة أخرى. وحسب بعض الباحثين فإن هذه الظاهرة أصبحت مبعث قلق و حيرة، فهي تشمل كل الكلمات والتعبيرات والرموز والإشارات بمختلف الألوان التي صارت تملأ كل الجدران في الأحياء الشعبية الفقيرة خاصة، وعلى جدران المؤسسات التربوية والمهنية وحتى في المرافق والساحات العمومية، فهي ملاحظة بشكل مثير في جدران المراحيض العامة، وفي مواقف الحافلات وعلى كراسي القطارات، وفي كل مكان يصلح للكتابة أو الرسم أوالحفر وحتى للنقش، فباتت مساحات كبيرة يجد فيها الشباب مكانهم المفضل للتجمع ولطرح رسائلهم وشكاويهم، وأحيانا لملأ فراغهم، وتعبيرا عن أمانيهم وطموحاتهم". (مخطار، 2004، صفحة 181)

2_الجذور التاريخية للغرافيتيا:

يعود تاريخ التدوين الجداري إلى عصور ما قبل التاريخ،"حيث كان الإنسان البدائي يعبر عن انفعالاته، وأفكاره، ومحاكاته للطبيعة من خلال النقوش والرسوم على الجدران، والكهوف، والمغارات، أوالألواح، والحجارة التي نُقشت عليها القوانين والتشريعات وما إلى ذلك، وقد أكدت الكشوفات الأثرية ذلك، فالنجوم الثلاثة المرسومة على جدران كهوف **لاسكو** في فرنسا تعود إلى مايقارب

16500عام، وكذلك الأمر بالنسبة لكهوف التاسيلي في الجزائر، التي اكتشفها **بربنان** بينما كان يجتاز الحدود الجزائرية الليبية عام1938 ". (كنزة، 2014، صفحة 50)

حيث وجد **بربنان** مجموعة من الصور والنقوش العجيبة التي احتوتها الكهوف، وقد لاحظ كذلك رسومات وصور لمجموعة من البشر يرتدون ملابس رواد الفضاء، ولوحات لسفن الفضاء ولوحات لطائرات غريبة الشّكل، ورسوم لأناس يرعون البقر وسط مروج كثيفة وحدائق مخضرة، ورجال ونساء يرتدون ثيابا حديثة مثل التي نرتديها في العصر الحديث، وصور لحيوانات برية وصور لبعض الآلهة القديمة وغيرها.فقد قام الرحالة هنريلوت في عام 1956بزيارة الكهوف لمعرفة عمر تلك النقوش فقدُر عمرها بأكثر من 30000 سنة، حيث تركت تلك الكهوف ونقوشها من علامات الاستفهام والدهشة والتي أطلق عليها علماء الآثار اسم لغز كهوف التاسيلي وتظهر الكتابات الجدارية في التاسيلي، ليس في الكهوف فقط ولكن من خلال نقوش ورسوم، وكتابات على جدران المخابئ، وعلى الواجهات الصخرية، والنصب الجنائزية، منذ ما يزيد حوالي 10000 سنة، فبالنسبة للمخابئ، ظهرت كتابات مكتوبة على الجدران والأرضيات والأسقف، وتعد الرسوم والنقوش في التاسيلي نموذجا أولى العادات السكان في ذلك الوقت، حيث كانوا يدونون فيها حياتهم اليومية، ولم يكتفي سكان التاسيلي بالكتابة والرسم فقط للتعبير عن يومياتهم، بل تعد وذلك لتخليد حضارتهم من خلال الرسوم الفنية المنقوشة في كل مكان كما تفنن سكان التاسيلي بالتدوين والرسم على الجدران والصخور من خلال ظهور أناشيد دينية مميزة وأدعية لإنجاب الأطفال وغيرها.

أما الاكتشافات الأثرية الجغرافية العربية للجداريات ظهرت لأول مرة في بلاد الرافدين وفي مصر حوالي 3000 سنة قبل الميلاد، قبل أن تنتقل إلى أوربا.

تعد الحضارة الفرعونية من أهم الحضارات التي بحث العلماء في آثارها الجدارية المكتوبة، حيث كان الفراعنة يقومون بتسجيل الأحداث اليومية والحاسمة لديهم والنصوص الدينية على الألواح الحجرية وجدران المعابد والمقابر على شكل كتابات تصويرية، هذه الأخيرة تعد أول مرحلة من مراحل التعبير الخطي عن المعاني والمداولات عند قدماء المصريين وغيرهم، حيث عبرت عن حضارته وثقافته تعبيرا لغويا باستخدام هذه الكتابة، أما عند الغرب فقد اكتشف أن الرومان كذلك مارس هذا النوع من الكتابات منذ أكثر من 200 سنة، فكانت الكتابات والرموز والرسوم تعبر عن واقع وآمال ومعاناة الإنسان التي ترتبط بالتنظيمات الإنسانية وبالمحيط البيئي الذي عاشفيه، وقدكان المسافرون الإغريق ينقشون الحروف الأولى لأسمائهم على الأهرامات المصرية، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من **واد يالنيلفي** الجهات الوسطى والجنوبية من القارة الأمريكية، مهد حضارات **المايا والأزتيكوالأكيا**، اكتشفت آثار أخرى شبيهة بالآثار السابقة، وفي بريطانيا ظهرت علامات غريبة وآثار أولت على أنها رموز لعبادة شمسية، وقد تعود هذه الآثار إلى عصر البرونز أي إلى حوالي 1500 سنة قبل الميلاد، كما أن سراديب الموتى بروما تضم أكبر معرض للنقوش الأثرية في العالم، ويقارب العدد الإجمالي لها بـ 750.000 ،أغلبها يندرج ضمن رسوم الفن المقدس، التي أنجزها

المسيحيون الأوائل في معابدهم، وقد اكتسبت هذه النقوش من القيمة ما يجعل منها شاهدة تاريخية". (كنزة، 2014، صفحة 39)

وقد اتسمت البدايات الأولى لظهور الغرافيتيا "بالرفض الاجتماعي خاصة من طرف السلطة الرسمية بحجة أنها تشوه منظر المدينة فكثير من الصحف كتبت حول الظاهرة ووصفتها بأنها تشكل خلل داخل النظام العمراني الحضري باعتبار أن الكتابات الجدارية هي نوع من تملك المدينة كما أنها شكل من أشكال العنف الرمزي، من الناحية الفنية اعتبرت السلطة الرسمية واغلب الصحف آنذاك بأنه لا يمكن اعتبار الغرافيتيا فنا لأنه لا يحتكم الى القواعد الفنية الجمالية المتعارف عليها.

يرجع انتشار الكتابات الجدارية وحضورها في الأحياء خاصة الشعبية الى عدة عوامل لعل أهمها المضامين التعبيرية التي تحملها هذه الكتابات من انتقاد ورفض التهميش والسيطرة، ضف إلى ذلك جملة المشاكل التي كان يعيشها الشباب خاصة التهميش وتعقيدات المدينة والتي حالت دون اندماجهم في الوسط الاجتماعي وظهور الانحرافات الاجتماعية في وسط إحياء المدينة خاصة الشعبية منها، كل ذلك ساعد على انتشار هذه الكتابات التي هي عبارة عن رسائل رمزية تواصلية يغلب عليها الطابع الاحتجاجي النقدي وكذلك الانطباعات الانفعالية.

في سياق أخر أخذت الغرافيتيا الاجتماعية من خلال الاعتراف بأنها ظاهرة حضرية تساهم في ديناميكية المدينة إذ تعبر عن القضايا الاجتماعية وعن الضغوطات النفسية التي يعيشها الشباب، من جهة أخرى للغرافيتيا خصوصية جمالية وفنية تساهم في التعددية الثقافية والجمالية واللغوية داخل المدينة كما أنها فن تزيين المدينة. (نورة، 2005، صفحة 65)

ثانيا: بعض الدراسات السابقة حول الغرافيتيا:

لقد درس موضوع الكتابة على الجدران من قبل عدة تخصصات حيث نجد علم النفس الاجتماعي ، علوم الاتصال، الانتروبولوجيا وكذا علم الاجتماع.

1_دراسة جزائرية لكريم أوراس والمعنونة ب " غرافيتيا مدينة الجزائر: ملتقى اللغات والرموز والخطابات والجدران تتكلم (كريم، 2009، صفحة 174). يدور موضوع الدراسة حول طبيعة اللغة الموظفة في الكتابات الجدارية وعلاقتها بالخطاب الاجتماعي، دراسة حالة مدينة الجزائر، حيث صنف الباحث اللغات الموظفة في الكتابات الجدارية الى لهجة جزائرية دارجة، الفرنسية، الأمازيغية، العربية الفصحى، ثم قام بتحليل عينة من الوحدات الجدارية ليستنتج أن كل لغة موظفة لها مدلولها على مستوى الخطاب الاجتماعي، فتوظيف العربية الفصحى عادة ما ارتبط بالشأن الديني، أما المطالب الأمازيغية فكثيرا ما وظفت اللغة الأمازيغية والفرنسية.

2_دراسة جزائرية للباحثة جباركنزة تحت عنوان " اتجاهات الطلبة الجامعيين نحو الكتابات الجدارية _دراسة ميدانية لعينة من الطلبة الجامعيين بجامعة الحاج لخضر_ باتنة" (كنزة، 2014). يتمحور موضوع الدراسة حول مدى موافقة الطلبة أو معارضتهم لممارسة ظاهرة الكتابة على الجدران الذي يكشف عن السلوك الضمني والفعلي لأصحاب هذا الاتجاه وقد وقع اختيار الباحث على الطلبة الجامعيين لمعرفة اتجاههم نحو ظاهرة الغرافيتي باعتبار أن هذه الفئة مهمة وربما تعتبر طرفا فاعلا في هذه الظاهرة.

وقد طرح الباحث تساؤل رئيسي مفاده:

ما طبيعة اتجاهات الطلبة الجامعيين نحو الكتابات الجدارية؟

ثالثا: الكتابات الحائطية في الوطن العربي

1_الغرافيتيا في تونس:

لم يجلب الربيع العربي تغيرافيا لنظام "وحسب، وإنما جلب أيضا بعدا تاما و جديدا من الحريات المجتمعية، ويتجسد ملمحمنه في انتشار الرسوم والكتابات على الجدران.

تترجم الكتابات الحائطية التونسية الكثير من هموم الشعب التونسي وخاصة الفئات الشبابية، فقد لجئت إليها قبل وأثناء الثورة للتعبير عن الآراء السياسية والاجتماعية، وفي الفترة الأخيرة لم تعد الكتابات الجدارية ذات طابع عفوي، فقد أصبحت منتظمة للكثير من المواقف خاصة على الصعيد السياسي التونسي، فقد كانت تلك الكتابات في عهد الرئيس السابق" زين العابدين بن علي "ممنوعة تماما على الشباب، إلا أنها كانت الملجأ الوحيد لمعارضة لنظام إدارة البلاد، ولكن بعد ثورة 14 جانفي واصل الشباب التعبير عن آرائهم في مختلف المسائل السياسية وتدخلوا في تعيينات الحكومة، واعتبر الكثير من الشباب التونسي الكتابة على الجدران بمثابة الفعل المقاوم أو النشاط السياسي المؤثر على الرأي العام .وعن تلك الخربشات قالت منيرة الرزقي مختصة في علم الاجتماع أنها قد تخفي وراءها عجزا ظرفيا عن التحاور وعن إيصال الصوت إلى من يهمه الأمر، ورغم أن الثورة أطاحت برموز النظام، ولكن الفئات الشبابية لا تزال مستمرة بالكتابة لشهورها بأنها ما انتظرته من عملية الإطاحة بالنظام لم يتحقق بعد وأصبحت تونس وفي كل مكان رسومات وكتابات على الجدران، وفي كل من محطات المترو والقطارات وفي شوارع وسط المدينة، وكذلك الجامعات والمناطق الراقية والشعبية وغيرها، ففي الاعتصامات والاحتجاجات مثل اعتصام باردو 1 الكبير الذي أقيم أمام مبنى البرلمان التونسي، حيث كانت لوحات الغرافيتي حاضرة في كل مكان ترافق المعتصمين في كفاحهم ضد البطالة والتهميش وعودة الطغاة.

يقول فنان الغرافيتي حافظ خضري لقد كانت هذه الظاهرة تقتصر في البدء على أواسط سرية، فمعظم التونسيين كانت لديهم صورة سيئة عن فن الغرافيتي، وكانوا ينظرون إلى هذا الفن باعتباره مجرد تخريب وليس كشكل من أشكال الفن، ويضيف معين غربي" لكن الآن جميع من يتحدّث حول حرية التعبير صار يتحدّث حول فن الشارع، فلقد كنا نعيش في عهد الدكتاتورية كما لو أننا تحت قبة زجاجية، والآن انفجرت هذه القبة الزجاجية وصار بإمكاننا أن نعرض فنّنا على كل المجتمع".

2_الكتابات الحائطية في الجزائر:

ترجع الكتابات الجدارية في الجزائر مع اكتشافها في كهوف الطاسيلي، من قبل الرحالة بربنانعام 1938 ،حينما اجتاز الحدود الجزائرية الليبية، حيث وجد مجموعة هائلة من الرسوم والكتابات والنقوش والحفريات، وكانت بذلك أهم الاكتشافات في الجزائر آنذاك كما عرفت الجزائر ظاهرة الغرافيتي في فترة الاستعمار الفرنسي، حيث ظهرت كتابات ذات طابع رياضي تنافسي بين الأندية الرياضية المختلفة، وكانت تهدف للافتخار بالفوز خاصة على الأوروبيين، حيث فسّر المؤرخون ذلك بأنه يعبر عن الروح الوطنية والتميز والقدرة على قهر المستعمر، ولأن العمل السياسي لم ينجح، وباندلاع الثورة التحريرية في الفاتح من نوفمبر 1954 ،انتشرت الكتابات الجدارية في كل المدن التي أخذت طابعا تعبيريا وإعلاميا، فظهرت عبارات كثيرة منها" **جبهة التحرير الوطني** "و"**الجزائر مسلمة** "كرد فعل على العبارة "**الجزائر فرنسية**"، أما بعد الاستقلال انتهت الكتابات الجدارية في المدن الجزائرية، فتلاشت ولم يبقى منها إلا الشيء القليل، وهذا إندلّ على شيء فإنما يدل على أن الكتابات الجدارية ليست واحدة من طقوس وعادات الشعب الجزائري، فغابت الكتابات قدرا من الزمن ثم عاودت البروز من جديد، حيث عاشت الجزائر فترة من الاضطرابات في أواخر الثمانينات ما بين التيارات". (فتيحة، 2005، صفحة 31)

وقد ارتبطت الكتابات الحائطية بالحركات التحررية حيث اعتبرت كرسائل سياسية وردود فعل على السياسة الفرنسية الاستعمارية إذ يمكن وصفها بأنها غرافيتيا ثورية ساهمت في انتشار الوعي الثوري والتعبئة الجماهيرية.

بعد الاستقلال ارتكزت الكتابات الجدارية في الجزائر على مواضيع اجتماعية خاصة العلاقات الحميمية بين الرجل والمرأة كما كانت كأداة لمناصرة وتشجيع فرق كرة القدم....الخ.

إن التحولات الاجتماعية التي عرفتها الجزائر مع الثمانينات والتسعينات التي سبق شرحها وتفسيرها حددت أشكال أخرى من النقد والتمرد الاجتماعي عبر الكتابات الجدارية حيث أصبحت المواضيع السياسية أكثر انتشارا في مختلف الفضاءات كنقد نظام الحكم والتذمر منه الترويج للأحزاب السياسية من اجل الانتخاب عليها مواضيع الفساد السياسي الى جانب مواضيع أخرى كالأزمة الاقتصادية الفقر التهميش البطالة الهجرة المخدرات ضف الى ذلك المطالب الثقافية كالمطلب الثقافي الامازيغي والمواضيع الدينية خاصة ما تعلق منها بالإسلام السياسي.

هذه جملة المضامين التي حملتها الكتابات الجدارية آنذاك حيث ترجمت حالة التصدع التي وصلت إليها الجزائر في مختلف المجالات.

من الناحية الشكلية كثيرا ما اتسمت الغرافيتيا في الجزائر بالتعدد اللغوي(اللهجة الجزائرية، الفرنسية، الأمازيغية، العربية الفصحى) ضف الى ذلك يرى بعض الباحثون على أنها نوع من العنف الرمزي، تحمل كلمات بذيئة من سب وشتم...الخ". (نورة، 2005، صفحة 65)

رابعا: العوامل التي أدت إلى ظاهرة الكتابات الجدارية:

ولأنها ظاهرة متشعبة ومتعددة الأوجه، فإن خلفها جملة من العوامل التي أدت إلى بروزها وحتى إلى تفاقمها بغض النظر عن الحكم عليها أوالتصور الاجتماعي حولها. وحتى نعطيها قدرها من البحث فإنه وفي مجمل ما توفر لدينا من أسباب عامة أدت إلى ظهورها فإننا سنحاول تبويبها حتى يتسنى لنا فهمها جيدا ومن هذه العوامل نذكر مايلي:

أ_ العوامل الاجتماعية:

كيفما نظرنا إلى الكتابات الجدارية فهي أولا ظاهرة اجتماعية، وهذا يعني أنها تحدث في الوسط الاجتماعي، فمن يقوم بها هم أفراد من ذلك المجتمع يشكلون جزء من تراثه الثقافي والحضاري، وجزء من عاداته وتقاليده وطقوسه التي تأبى أن تنفصل عنه وترفض أن تهمش أو توضع في الاحتياط.

إن الكتابات الجدارية تمارس عادة وكما رأينا من طرف شرائح شبابية معدومة ليس لها مستوى ثقافي، تربوي ،تعليمي(...،أوشرائح مقموعة) شريحة المغتربين، السود، البطالين وهي جزء من المجتمع الكلي الذي بشكل أو بآخره مشأ وتناسي تلك الشرائح.

إن الكتابات الجدارية مهما كان أسلوبها :كتابة أوصورة ،أورموز ،أوشفرات، فإنه لفهمها لابد من حل وتفكيك تلك الرموز التي تحتوي في طياتها معانيا جتماعية كثيرة جدا هي في أساسها معاناة تلك الشريحة التي تلجأ إلى هاته الكتابات كحل بسيط أوكطريقة للمطالبة بعدة أشياء،كما أنها تحدث في:

المجتمعات التي تعاني من خلل في المراتب الاجتماعية وتكشف عن وجود ثغرات في النظام .

تحدث بسبب انعدام تكافؤ الفرص في العمل، في السفر الهجرة، وكذا الاستفادة من امتيازات الدولة.

تحدث كعنف رمزي مجسد لردة فعل من طرف الشرائح المقموعة على حد تعبير David Manise لتطالب بالحقوق المهضومة، والمساواة بين كل شرائح المجتمع.

وما يمكن قوله باختصار أن الكتابات الجدارية هي في مجملها تجسيد للمشاكل الاجتماعية التي يعاني منها أفراد ذلك المجتمع، وارتفاع وتيرتها أوانخفاضها هو مؤشركفيل لارتفاع أوانخفاض المشاكل الاجتماعية.

ب –العوامل الثقافية:

في مجملها فإننا لا نبتعد كثيرا عما ذكرناه سابقا، لأن المجتمع إنما يقيم من خلال تراثه الثقافي والحضاري، وبكل ما يحتويه من مقومات تظهر في جملة العادات والطقوس والتقاليد والعقائد الممارسة فيه .وعلى اعتبار أن الكتابات الجدارية هي " منتوج ثقافي حضري" ،فإنها بشكل أو بآخر تعكس مدى تشبع هذه الفئات أوالشرائح به،فهي حوصلة لهذا البعد الثقافي الحضري .وقد نلمس هذا جليا إذا ما أجرينا مقارنةبسيطة بين جملة الكتابات الجدارية في الدول الغربية والدول العربية، ورغم أنها نتاج تراثي إنساني، إلاّ أنها تتميز بخصائص محلية تختلف من دولة لأخرى من حيث محتواها الثقافي، ففي الدول الغربية كإيطاليا وفرنسا مثلا فإنه يغلب عليهال مواضيع السائدة في تلك المجتمعات، فهي تتجاوز كل القواعد والمحرمات، بل إنها تدين وتنذر،حينما تتأطر وتتحول إلى أجواء كابوسية وجنسية متوحشة ومبتذلة كما حللها حسان تليل، على عكس ما في الدول العربية فرغم أنها محاولة لكسر كل الطابوهات الموضوعة في المجتمع، لكن محتواها لا يتعدى التصريح بالمعارضة للقيادات وللأنظمة وإن تناولت المواضيع الأكثر حساسية كالجنسية فإنها ابسط بكثير مما هي عليه في الدول العربية.

إن الكتابات الجدارية هي مؤشر على المستوى الثقافي وحتى التعليمي السائد، فكثيرة هي الكتابات التي تأخذ شكل رموز أوإشارات، حيث تعكس المستوى المحدود لصاحبها، وإن لم توحيب المستوى التربوي المحدود فإنما هي رموز وتشفيرات قد يلجأ ويتعمد فاعلوها حتى تنالحظا أوفرفيا لفهم والمعنى، وبالعودة إلى الكتابات الجدارية في القديم فإنهاكانت تجسد الطابع الثقافي السائد، ففي رسومات كهوف التاسيلي نلمح تلك الحيوانات الطائرة، وكذلك هو الأمر بالنسبة للآثار العراقية في بلاد الرافدين والتي تم نقل معظمها إلى أوروبا، فتلك الحيوانات الغريبة كالثيران المجنحة إنما هي رسومات لآلهات مجسدة لتلك الأفكار المسيطرة في ذلك العصر، وغيرها من الأمثلة، ومنه أجمع الباحثون الأثريون على أن الكتابات الجدارية بدأت بالرسومات المحفورة أوالمنقوشة على جدران الكهوف والمغارات، مرورا إلى المعابد والمقابر، وهذا في عصور ما قبل التاريخ وبالتالي قبل بروز فن الكتابة، ولعل المتبصر ما بين الكتابات القديمة والحالية إنما يستشف منها المستوى الثقافي والعلمي والعقائدي الذي كان سائدا في حقبة ما.

إن الكتابات الجدارية في الدول الغربية تعكس بشكل جلي المستوى الثقافي السائد، وهذا ما يتضح من خلال العبارة التي وجدت على قطار ما بين لندن وأكسفورد "العصابيون يبنون قصورا في الخيال والمجانين يسكنونها والأطباء النفسانيون يجمعون الإيجار عنها"

ج –العوامل السياسية:

تكسب الكتابات الجدارية بعدا سياسيا لا غنى عنه في معظمها، وهي نفسها سواء في الدول العربية أو الأجنبية، فهي دوما تجسد الصراعات الحزبية والأفكار والجماعات الطائفية التي لم تجد سبيلا للخروج إلى الساحة العامة فتختلف مضامينها السياسية، كما في سنوات الاستعمار الذي عاشته الجزائر، وخلال اندلاع الثورة التحريرية حيث ملئت الجدران بعبارات الترحيب بالثورة وتأييد الثوار وكذا للرفع من عزيمتهم .

وعلى العموم فإن الكتابات الجدارية في بعدها السياسي إنما تتزامن مع الأحداث، ومثالنا في ذلك أحداث الجزائر في بداية التسعينات حيث ظهرت تحت وطأة تلك الظروف، وما يمكننا قوله أن تزامن الأحداث السياسية مع الكتابات الجدارية، أو غيرها من الأحداث الأخرى المجتمعية، إنما صفة شهدتها ولم تزل كل دول العالم، ولكن تبعا لنوعية تلك الظروف وشدتها.

ففي فرنسا بعد ثورة الطلاب في عام 1966 ، حيث كانت دافعا قويا لبروز هذه الكتابات التي جاءت معبرة عن أفكار وآراء جماعات نخبوية مقهورة أي تعبر عن فكرة وثقافة الاغتراب في مجتمع عنصري.

أما في روسيا وبالضبط في موسكو، فإن الأحداث والتحولات العميقة التي عرفها المجتمع في أواخر الثمانينات والتي أسفرت عن انهيار عالم ضخم كان يعرف بالاتحاد السوفياتي، ساهمت وأدت إلى بروز الكتابات الجدارية التي عبرت وبشكل جلي عن تلك التحولات، ودون أن نركز على هذه الدولة ونتناسى أخرى، فإن الكتابات الجدارية كانت ولازالت تتزامن مع الأحداث السياسية في مجتمع ما، ولعل الكتابات الجدارية في فلسطين أحسن مثال لها سواء المنجزة من طرف الفلسطينين أو الإسرائيلين.

وخلاصة القول أن الكتابات الجدارية لا تحدث لسبب اجتماعي أو ثقافي أو نفسي أو سياسي بقدر ما تحدث بتظافر جملتها وإن طغت إحداها على الأخريات.

د –العوامل النفسية:

إن الأسباب النفسية والتي هي جملة الصراعات والإحباطات والمشاعر المتناقضة التي تنتاب الفرد تساهم بجزء كبير في بروز الكتابات الجدارية، خاصة وأن معظم القائمين بها شباب أو بالأحرى مراهقين، وتعد أحسن ممر لتنفيس تلك الطاقات المعارضة والمنافية أحيانا للمبادئ والقيم والعادات، فهي ليست طريقة تعبير فقط بل تعتبر عنفا رمزيا ينبعث من مضامين تلك الإشارات والرموز التي تبدي الرغبات الجنسية المحرمة منها والمقبولة والتي لا تجد تنفيسا لها، ويلعب الاستقرار النفسي دورا فعالا في سلوكات الأفراد ونمطيتها، حيث أن القيمة الكمية والكيفية للكتابات الجدارية تختلف من مكان لآخر، ومن وقت لآخر وفي هذا تحليل الحالة النفسية التي كتبتها، التحليل النفسي لتلك الكتابات، هذا من جهة ومن جهة أخرى يوجد ما يسمى بالتقليد خصوصا تقليد الأطفال لعملية الكتابة، ولعل الكتابات الجدارية في المراحيض العامة هي نوع خاص بذاته عند بعض الباحثين وهو نمط يمتاز بحظ وفير في البحث والتنقيب في الدول الغربية ومنه فالأسباب النفسية تدخل في خضم الأسباب الاجتماعية والثقافية المؤدية للكتابات الجدارية (نورة، 2005، صفحة 115)

خامسا: أماكن الكتابات الحائطية:

سنحاول أن نذكر أهم الأماكن التي يتخذها ممارسو الكتابات الحائطية فضاءا لهم أهمها:

1_غرف الشباب :

"وهو نوع خاص جدا وربما لا يكون منتشرا حيث تظهر رسوم الغرافيتي على جدران غرف الشباب المنخرطة في ثقافة **الهيب هوب** وهو رسوم تعكس انتماء هؤلاء الشباب لهذه الثقافة وتمثل عادة مميزة لمجموعة معينة أو لشخصية معينة ويجسد الشباب هذه الرسوم والتي يستوحونها من أعمال فنية عالمية مشهورة عادة ما يطلعون عليها من مواقع الويب الخاصة على شبكة الانترنت أو المجلات في هذا النوع من الفنون". (المنجي، 2007، صفحة 30)

2_المراحيض العامة:

وتقول إحدى الجمعيات والتي تدعى "بجمعية المراحيض البريطانية" انه معرفة الوجه الحقيقي لكل بلد من خلال الكتابات الموجودة على المراحيض العمومية، فهي تعبر عما يختلج في نفوس الكثير من الناس الذين يخجلون من قولها في الخارج أمام الناس، فلو تطرقنا للكتابات الجدارية الموجودة في البلدان الشرقية فإنه غالبا ما تنتشر الكتابات الجدارية السياسية (المضادة للحكومة)، أما المراحيض الغربية تكتب عليها كلمات نابية وهي تعبر عن نوع من الثقافة المنتشرة لدى بعض الناس.

3_جدران المحلات التجارية والدكاكين:

ويظهر تطلع بعض الشباب من خلال هذا الفن في أن يصبح مهنة في المستقبل، ومع بروز مدارس فنية على أيدي مهرة هذا الفن ورواده، صار أصحاب المحلات يستعينون بمختصي الغرافيتي لطبع ردهات محلاتهم بالرسوم الهزلية، والرموز التي أصبحت شيئا لازما لمثل هذه الصناعة". (بثينة، 2016، صفحة 51)

4_الشوارع والأحياء:

وعادة ما تظهر من خلال "رسوم عشوائية وكتابات متداخلة وذات مستوى رديئ، وتعبر عن لغة وثقافة أحيائها الشعبية، وبنوعيها محيطها الحضري بأبعاده الجماعية والهندسية". (المنجي، 2007، صفحة 50).

خاتمة

تبقى الكتابات الجدارية واحدة من أبرز الظواهر التي مازال يعتريها الكثير من الغموض خاصة في وقتنا الحالي مع تعدد مواضيعها وانتشارها بشكل مثير في كل المرافق العمومية والمراحيض العامة وعلى أسوار وجدران المؤسسات التعليمية والمهنية وحتى التكوينية بحيث أصبح ممارسوها يعتمدون عليها في الكثير من المناسبات لتبليغ رسائلهم بطريقة مشفرة أو صريحة وذلك لجلب انتباه الناس جاعلين منها وسيلة أساسية في الكشف عن مكبوتاتهم الشخصية واهتماماتهم السياسية والاجتماعية.

قائمة المراجع

المنجي, ا. (2007). *قافة الشارع، دراسة سوسيوثقافية في مضامين ثقافة الشباب" ، ، مركز ا* . تونس :لنشر الجامعي.

بثينة, ج. (2016). *الكتابات الحائطية ودلالات العنف لدى تلاميذ المرحلة الثانوية، دراسة ميدانية ببعض ثانويات دائرة مقرة* . جامعة المسيلة.

بوعلام, ب. (2014). *فعالية الغرافيتيا النظالية في التعبئة الهوياتية خلال العهد الاستعماري، الجزائر نموذجا* . مجلة الإنسان والمجتمع.

فتيحة, ل. (2005). *تحليل سوسيولوجي للواقع الاجتماعي الجزائري من خلال الكتابات الحائطية ."* الجزائر :رسالة ماجيستير.

كريم, أ. (2009). *غرافيتيا مدينة الجزائر،ملتقى اللغات والرموز والخطابات والجدران تتكلم ."* وهران :الكراسك.

كنزة, ج. (2014). *اتجاهات الطلبة الجامعيين نحو الكتابات الجدارية، دراسة ميدانية لعينة من الطلبة الجامعيين* . الجزائر :رسالة ماجيستير.

مخطار, م. (2004). *الإعلام الرسمي والإعلام غير الرسمي، الكتابة على الجدران أنموذجا* . الجزائر :رسالة دكتوراه .

نورة, ع. (2005). *التصورات الاجتماعية للعنف الرمزي من خلال الكتابات الجدارية* . جامعة قسنطينة :رسالة ماجيستير غير منشورة.